الفصل الخامس

الرؤية الحضارية

❁❁❁❁❁

المبحث الأول: مظاهر الجمال في المكان والإنسان

المبحث الثاني: النزعة التحديثية واستشراف المستقبل

المبحث الثالث: الوجود الإسلامي في الغرب

obeikandl.com

المبحث الأول

مظاهر الجمال في المكان والإنسان

من الجدير بالذكر مدى تقدير الحضارة الغربية لأشياء كثيرة، وتتميز الرؤية الحضارية بملاحظة الأشياء الصغيرة والكبيرة، الدقيقة والعظيمة، على حدٍ سواء.

والحقيقة أن جميع الكتاب الذين ارتحلوا للغرب على اختلاف مقاصدهم عبّروا عن انبهارهم بحضارة البلاد الغربية، حيث يسود اللون الأخضر، كبساط للطبيعة الباسمة على طول المساحات بين كل قرية وقرية، وبلدة وبلدة، وفي أنحاء المدن والقرى معاً، حيث الهواء الطيب والنسيم العليل طوال اليوم.

وتتنوع المشاهد الحضارية ما بين جمالية السلوك الاجتماعي الراقي وجمالية الأماكن المختلفة، حيث أوضح الكاتب **محمد ثابت**[1] إنها

---

(١) محمد ثابت: (.....-١٩٥٨م) جغرافي ورحالة مصري، عمل مدرساً في المدارس الثانوية، واهتم بتدوين ملاحظاته ومشاهداته عن البلدان التي كان يزورها في العطلات الصيفية. عمل طيلة حياته في مجال التعليم اختير لتدريس المواد الاجتماعية في كلية النصر بالمعادي، توفي فجأة أثناء إحدى محاضراته، إثر نزيف بالمخ.
من آثاره:
- جولة في ربوع أوربا.
- جولة في ربوع إفريقيا.
- جولة في ربوع آسيا.
- العالم الديمقراطي كما رأيته.

انظر: الإعلام ٦/٦٧ + ٦٨.

obeikandl.com

تهول الزائر بنظافة طرقها وأبنيتها وساكنيها، حيث الإفراط في التنميق، حتى إن أعمدة المصابيح زُينت بالورد والثريات الناصعة البياض، فهي مدينة نظيفة هادئة.

ويبالغ الناس في العناية بنظافة الطرق، حتى إن الشرطي لا يسمح لأحد من الناس بإلقاء أي شيء في الطريق، وحدث مرة أن ألقى أحد المارة بقشر الكمثرى التي كان يأكلها، فأدركه الشرطي وأخرج من جيبه دفتر المخالفات، وألزمه بدفع الغرامة، ثم سلمه الإيصال،فتناوله الرجل غاضباً، ثم مزقه ورمى به إلى الأرض، فاستوقفه الشرطي ثانية ليدفع الغرامة للمرة الثانية، ثم ألزمه أن يجمع ما ألقاه في الطريق، واقتاده إلى سلة المهملات، وتلك السلال تعلق بكثرة في أعمدة المصابيح(١).

وتحدث الكثيرون عن نظافة البلدان الأوروبية، وقارنوا فيما بينها واتفقوا جميعاً على أن سويسرا ودول شمال أوروبا تكاد تكون أنظف البلدان الأوروبية.

وقد لاحظ رفاعة الطهطاوي منذ ما يقرب مائتي سنة ماضية حب الفرنسيين للنظافة، ويقول "وما عند الفرنسيين من النظافة الغربية بالنسبة لبلادنا، فإنهم لا يعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة، فإن

(١)انظر: جولة في ربوع أوربا، محمد ثابت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة١٩٨٤م، ط٣/ ٢٨.

obeikandi.com

أعظم الناس اعتناء بالنظافة أهل الفلمنك(١)، فتجد مدنهم وغالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض المتعهد بالتنظيف، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضاً، وشبابيكها القزاز تغسل دائماً" (٢).

وكتب الشيخ مصطفى عبد الرازق في رحلته لأوربا أن المرضى في علل بصدورهم، يحرص كل واحد منهم على أن يكون معه مبصقة يودعها في خفاء ما يفيض به صدره، فلست تلمحهم حين يبصقون ولست ترى في سبيلٍ أثراً للبصاق(٣).

ثم يقول: "أما قومنا – عفا الله عنهم– مرضى وصحاحاً، فيبصقون في كل مكان، ترى آثاره لعابهم ونفثات صدورهم وخياشيمهم في المنتزهات والطرقات والمنازل، وأماكن العمل وفي عيادات الأطباء أيضاً(٤)".

والحقيقة أن المحافظة على نظافة الأماكن تعد من أهم العادات الحضارية المهمة، حيث يجب أن يُراعي الفرد أذواق الآخرين، وتأفف نفوسهم من رؤية ما يستقذر من مخلفاته.

---

(١) كلمة فلمنك أصلها من اللغة الألمانية، وهي بلاد صغيرة، بين بلجيكا وألمانيا قبالة انجلترا على مصبات نهر الراين. والفلمنك تكوّن اليوم أكبر مقاطعات بلجيكا.
انظر موقع : بنك الوثائق والمعلومات والمخطوطات.
(٢) تخليص الإبريز، ٤٣.
(٣) انظر: مذكرات مسافر، ٤٠.
(٤) المصدر السابق، ٤٠.

obeikandl.com

وقد نقل الشيخ عبد الرزاق كذلك حكاية سيدة في مصر، ذهبت هي وزوجها إلى عيادة الطبيب، ولم تكد تستقر في مجلسها حتى سعلت وبصقت على الأرض، فنهض الطبيب إلى مبصقة في جانب من الحجرة ووضعها في يديها، قائلاً لها: "أرجو يا سيدتي أن تبصقي في هذه، وما هو إلا أن أتم حديثه حتى سعلت السيدة، ولفظت بصاقها على الأرض، فلامها الطبيب على هذا الإخلال بأبسط قواعد الصحة والأدب، فانبرى زوجها غاضباً وقال: ألست تعلم أن الله يقول:"ليس على المريض حرج"(١).(٢)

وآمل أن تكون هذه العادات غير الحضارية والبعيدة كل البعد عن روح الدين –حيث النظافة من الإيمان– قد تغيرت واختفت واندثرت مع تقدم المستوى العلمي والأخلاقي والذوقي للمجتمع.

*****

مع أني قلت في موضع سابق إن الحضارة الغربية قامت على تقدير المادة واحترامها، إلا أن هذه الحضارة لديها من الأسباب ما يجعلها جديرة بأن تكون وتستمر إلى ما شاء الله، فهناك جوانب أساسية في حياة كل حضارة لكي تبقى.

---

(١) الآية في سورة الفتح "لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ" ، آية ١٧.
(٢) مذكرات مسافر، ٤٠.

obeikandl.com

فاحترام حقوق الآخرين مثلاً- مهما كان هـذا الآخـر مختلفـاً- موجود، وليس معنى هذا أن تلك الحقوق موجودة سلفاً، بـل إن هنـاك بعض الأقليات في الغرب، مثل المكسيكيين والأفارقة والعرب والهنـود الحمر، ما زالت تكافح لنيل حقوقها، ولكنها تحقق تقـدماً فـي مختلـف المستويات؛ لنيل هذه الحقوق.

ففي الغرب ربما يكون كل من يرفع صوته ويجهـر بـه؛ لنيـل حقوقه، ويحقق شعبية بين العامة، يجب أن ينال حقه في آخر المطـاف، وإلا فما معنى أن تنال فئة محدودة- مثل الشواذ -حقوقهم، إذا لم يكـن لهم صوت مسموع وجماعات مؤيدة ومساندة، فهم يسيرون على شعار: خذ وطالب.

*****

- ومن المظاهر الجمالية في الإنسـان قبـل المكـان، التخلـق بالصفات التي تجعله مميزاً في إنسانيته. ولقد أعجبتني وشدتني بعض الأخلاق المعروفة والمفتقدة كثيراً مثل الدقة والإخلاص والثقة، وغيرها من السجايا الحميدة. فهذه بعض الصفات التي تجعل المرء جديراً بإنسانيته، ومسهماً فاعلاً في الحضارة التي ينتمي إليها. ولكم أن تتخيلوا عامل جريدة يعمل فـي توزيـع

obeikandl.com

الصحف – وطوال خمسين عاماً– لم يقصر في مسيرته العملية يوماً.

وقد أشار عبد الرحمن بدوي في سيرته إلى هذه الشخصية الظريفة المثيرة للإعجاب في ذكرياته عن سويسرا: "كان متخصصاً في بيع جريدة برن اليومية، وكان يقف على رصيف محطة الترام الكائنة في ميدان محطة السكك الحديدية. رأيته لأول مرة في أغسطس سنة ١٩٤٦م، ولما عدت إلى برن في فبراير سنة ١٩٥٦م وجدته في نفس مكانه لا يتحول عنه، وينادي بنغمة خاصة على جريدة "البوند" بنبرة للحروف خاصة به، وفي فمه دائماً سيجار رفيع طويل جداً، يبلغ طوله ثلاثين سنتيمتراً أو يزيد، وكان طويل القامة، مسنون الوجه، نحاسي البشرة، وعلى رأسه قبعة مثل الطاقية، عليها كتب اسم الجريدة. وقد تقاعد من هذا العمل، بعد أن أمضى فيه خمسين عاماً، في سنة ١٩٥٨م وكتبت عنه جريدته مقالاً بهذه المناسبة بوصفه مثالاً للمثابرة على العمل الواحد بتفان وإخلاص"(١).

وقد أشار أكثر من كاتب إلى الدقة في المواعيد، واحترامها الشديد في الغرب، مثلما ذكر الكاتب **عبد الوهاب مطاوع**(٢)، عن الحافلة التي

---

(١) سيرة حياتي، ٢٧٥/١.

(٢)عبد الوهاب مطاوع (١٩٥٤-٢٠٠٤م) كاتب وصحافي معروف تمتاز كتاباته بطابعها في حل المشاكل الاجتماعية، لكافة شرائح المجتمع.
وقد تضمن كتابه "سائح في دنيا الله" سيرة ذاتية له _ في الفصول الأولى _ تحدث فيها عن طفولته وأسرته ومدينته حتى أيام شبابه وأصدقائه.

obeikandi.com

كان يستقلها في بريطانيا، وكان موعد وصولها في تمام الساعة التاسعة وعشر دقائق، وخلال فترة دراسته – دورة في الصحافة– لم تتأخر الحافلة عن موعدها يوماً، بل ولم يتأخر موعد المحاضرات أبداً، حيث تبدأ في تمام الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة، كما لم تتغير بقية طقوس اليوم كله، "ففي الساعة العاشرة والنصف كنا نسمع صوت عجلات عربة تروللي صغيرة، تدفعها أمامها سيدة إنجليزية عجوز، ترتدي معطفاً أبيض فوق ملابسها، فتقدم القهوة إلى المحاضر أولاً، ثم تطوف على مكاتبنا لتسأل كلاً منا: كيف تريد قهوتك باللبن أم سادة؟ ثم تقدم القهوة، ثم تخرج بعد دقائق، فلا نراها إلا في الساعة الثالثة والنصف، حين تعود بعربتها مرة أخرى لتقدم لنا الشاي" (١).

والحقيقة أني أعجبت أيما إعجاب بهذه الظواهر الحضارية الجميلة، والتي أتمنى أن نراها في مجتمعاتنا العربية واقعاً ملموساً في جميع جوانب الحياة، فاحترام المواعيد يرسخ مفهوم الانضباط في التصرفات والسلوكيات، وتقدير قيمة الوقت الثمين، حيث الوقت كما يقولون في الغرب Time is money (الوقت هو المال).

وله بعض المجموعات القصصية مثل: أماكن في القلب، ولا تنسني.
انظر: مقدمة كتابه يوميات طالب بعثة.
(١) يوميات طالب بعثة، عبد الوهاب مطاوع، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٠م، ط٢، ٣٦-٣٧.

obeikandi.com

ولفت انتباهي أن المراسلات البريدية كانت في أغلب الأحيان ترسل وتصل في اليوم نفسه[١]، ولفت انتباهي أيضاً في هذا الجانب البساطة في التعامل، انطلاقاً من مبدأ الثقة، وقد لاحظ الكاتب محمد عناني هذا في أثناء إقامته ببريطانيا، حيث كان يصرف الشيكات اعتماداً على ذكر اسمه فقط، ولا حاجة إلى تقديم أوراق ثبوتية للتعريف به كجواز السفر مثلاً[٢]،إن مبدأ الثقة يُعد أساساً لكافة التعاملات الرسمية، وغير الرسمية، لرسوخ احترام هذا المبدأ عند البريطانيين.

وقد أشار إلى ذلك الكاتب عبد الوهاب مطاوع، حينما كان في مدينة استوكهولم السويدية، واضطر إلى استئجار لباس رسمي خاص، بإحدى المناسبات المهمة، وهي حضور حفل جوائز نوبل العالمية، الذي يقام في العاشر من ديسمبر من كل عام، واضطر إلى استئجار اللباس الخاص لهذه المناسبة، وكان سعر ذلك اللباس لا يقل عن ١٥٠٠ دولار، إلا أنه استأجره بمبلغ ١٧٠ دولاراً، وعندما سأل صاحب المحل عن كيفية إعادته للبس الحفل، أجابه: "فقط اتركها صباح اليوم التالي في قسم الاستقبال بالفندق"[٣]، فتعجب مطاوع في نفسه: "يا إلهي ما أجمل أن تسود الثقة في التعامل بين البشر"[٤]، ومطاوع هنا يشير إلى سر من أسرار سهولة الحياة في المجتمعات الغربية، وهو افتراض الأمانة

(١) انظر: المصدر السابق، ٧٤.
(٢) انظر: واحات الغربة، ١٧/٣.
(٣)(٣) سائح في دنيا الله،: ٢٥٤.

obeikandi.com

والصدق في الآخرين، وإن كانوا غرباء ولا معرفة سابقة بهم، فوجود عامل الثقة يشكل جسراً متيناً لكافة التعاملات الإنسانية الناجحة.

*****

ومن المظاهر الحضارية الجيدة كذلك، الاهتمام الفائق بفئتين مهمتين من فئات المجتمع، وهما المسنون والمعاقون، وقد أشار لهذا الاهتمام عبد الوهاب مطاوع في مشاهداته، وذكر كيفية التعامل الذكي للمجتمع الكندي مع هاتين الفئتين، مثل إعفائهما من ركوب المواصلات للذهاب إلى العمل(١).

وبقدر إعجاب الكاتب بهذه الخدمات المميزة للمسنين والمعاقين، كان حزنه وشروده، وهو يتأمل الحال المتواضعة للمسنين والمعاقين في مجتمع بلاده.

والذي أريد الإشارة إليه، أن المجتمعات العربية والمسلمة، لو التزمت فقط بما نصّت عليه الشريعة السمحاء، لما سبقتها المجتمعات بتطبيق وتفعيل كثير من مبادئ الإسلام الحاضّة على الاحترام والعناية بكل مسنٍ ومعاق ومحتاج.

(١) انظر: المصدر السابق ٢١٣.

obeikandl.com

المبحث الثاني

النزعة التحديثية واستشراف المستقبل

الحديث في هذا الموضوع مهم جداً، بل يُعد من أساسيات الموضوعات المثارة حينما يتعلق الأمر بالغرب، فلا شك عندي أن كل عربي مسلم مخلص لدينه ووطنه، يتمنى الاحتذاء علمياً بالغرب الذي وصل إلى آفاق متطورة من العلم، وساد العالم في عصرنا الحاضر بتفوقه العلمي والصناعي المذهل.

وقد أصبحت الدول الصناعية الكبرى تمتلك زمام الأمور، والقرارات العالمية؛ نظراً لتفوقها العلمي في المجال التكنولوجي، وعندما نقرأ في آثار من ارتحلوا للغرب من العرب، نرى تأثراً واسعاً بعلمية الغرب ومنهجيته التعليمية، وعلمائه النابهين.

ومن أقدم من قرأت له وتفاعلت معه هو **علي مبارك** حينما قرأت سيرته، ظهر فيها مدى رفضه للطرق التقليدية الشائعة في عصره في طريقة تلقين العلوم، وقد كان برفض تلك الطرق السيئة منذ نعومة

obeikandl.com

أظفاره، ويرفض مبدأ الشدة والسبّ والضرب في العملية التعليمية، الأمر الذي جعله يرفض الاستمرار في تعليمه الذي أراده له أبوه[١].

وتنقل بين مختلف دور التعليم، ولما أصبح كاتباً تدرج في مرافئ التعليم إلى أن أصبح ذا شأن، وابتعث إلى باريس؛ لتعلم علوم الهندسة والجبر والمساحة، وبعض العلوم العسكرية، ولقد كان علي مبارك واعياً منذ حداثة سنه، ومدركاً لدور العلم في تحديث المجتمعات، وبعد أن عاد إلى وطنه بعد مدة ابتعاثه، عاد وأصلح في شأن بلاده أموراً عظيمة لا يُستهان بها، فافتتح المدارس الحديثة في المدن والأرياف للبنين والبنات، وأسس دار الكتب المصرية، حيث أسهم بتجميع شوارد الكتب في مختلف فروع العلم؛ لجعلها في متناول الطلاب والباحثين، وأعمال أخرى جليلة تغص بها سيرته، وقد لمست مدى إصراره لتحقيق مآربه، مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة، حرمته الرقاد وأسلمته السهاد، حتى أصبح علماً من أعلام التنوير في عصره.

ووضع الكتاب الشهير **(علم الدين)**، والذي كان عملاً موسوعياً رتبه المؤلف بأسلوب جديد، فتناول عدداً هائلاً من المواضيع والعلوم والفنون تحت أبواب منفصلة أسماها مسامرات، بلغت مائة وخمسة وعشرين مسامرة، وقد اطلعت على هذا الكتاب المكون من جزأين كبيرين، فوجدتُ أن علي مبارك، قد تحدث فيه عن شتى ألوان العلوم

(١) انظر: حياتي، علي مبارك، ٦.

obeikandl.com

والفنون، منها على سبيل المثال لا الحصر، عن طبيعة باريس ومنتزهاتها وعن المكتبات، وعن العادات، وأيام العطلة، وبعض المدن مثل مرسيليا[1].

ويبني علي مبارك كتابه على أساس تعليمي، هدفه الاستفادة من ثمرات العصر الحديث، وذلك من أجل خدمة الوطن، وبناء دولة جديدة قائمة على العلم والحرية.

- والحقيقة أن كثيراً من أعلام التنوير، قاموا بجهود مشكورة في تأسيس المدارس العلمية المتنوعة، بعد قدومهم من بلاد الغرب واطلاعهم على النهضة العلمية فيه، فشجعوا تعليم البنات، وافتتحوا لهن المدارس، وفتحوا معاهد الطب والهندسة والزراعة، وكافة المعارف آنذاك.

والحقيقة أيضاً أن الأجواء الفكرية في العالم العربي، وفي مصر خصوصاً كانت بأمس الحاجة إلى التنوير الفكري، ليس في العلوم العلمية التجريبية، بل وفي العلوم الشرعية كذلك؛ لغموض بعض مستحدثات العصر واختراعاته على كثير من أهل البلاد، أقول هذا لأنني

(١) يقول الكاتب أحمد أمين: إن علي مبارك عندما شرع في تأليف (علم الدين) حشد جمعاً كبيراً من المدرسين، ورجال العلم، ووضع لذلك خطة محكمة ،هي أن يحصروا أهم مظاهر المدنية الحديثة، ثم يحصروا أهم المعلومات التي يجب أن يعلمها الإنسان المثقف، وكلف كل أخصائي أن يكتب في موضوع محدّد ، فيكون هذا العلم إذن نتيجة عمل جماعي، قام به العشرات من زملائه، انظر: مجلة الثقافة، القاهرة ع ١٢٨، ١٩٤١م، ٧٤٩.

obeikandi.com

اطلعت على قصة غاية في الغرابة، حدثت مع شيخ من شيوخ الأزهر، وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق، في أثناء سفره لأوروبا على متن باخرة، وهي الوسيلة الشّائعة المتعارف عليها آنذاك، فمع أن الطائرة كانت قد اخترعت، فهناك بعض الهيبة والخوف..من ماذا؟ من مزاحمة الملائكة في السماء. أجل!! هذا هو السبب، فحين اقترح عليه صديقه لسفر من باريس إلى لندن بالطائرة، قال له الشيخ: "وهل يصح أن نزاحم الملائكة بالمناكب، عند أبواب السماء، أو نتشبه بالجن في استراق السمع، (فقال صديقه): فالأمر هين، نستفتي شيخ الأزهر، وننتظر الجواب".(١)

فلا يخفى على أحد أن كثيراً من مخترعات العصر الحديثة، شكلت في بادئ الأمر لمعاصريها صدمة، حتى على علماء الدين المختصين.

وقد أردت من إيراد هذه القصة أن أشير لبعض معالم الأجواء الفكرية السائدة، في مرحلة البدايات المبكرة، وإلى الضرورة الحتمية للاستفادة من علوم الغرب ومخترعاته لمواكبة التقدم العلمي في مختلف وسائله، التي لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية بطبيعة الحال.

---

(١)مذكرات مسافر ٥٨.

obeikandl.com

وبصورة عامة يُعد الحديث عن النزعة التحديثية واستشراف المستقبل، قضية أصيلة ومشروعة لدى الأمم الناهضة والمتقدمة، وتمتلئ سير الذين ارتحلوا للغرب بإشارات وتعليقات عن أهمية الدور العلمي في رقي المجتمعات.

ففي رحلة الشيخ مصطفى عبد الرازق نقرأ حديثه عن الطلاب المصريين في باريس، فيقول عن زيارته لمجمع الكوليج ده فرانس، والسوربون، حي العلماء والطلاب: "هم ألوان مختلفة وبلدان شتى، وأكثر الطلاب الأجانب جداً وعملاً، وانتفاعاً بالمقام في أوروبا هم اليابانيون[1]، أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة، ولا يبدو على محياهم أثر الشحوب، فيقول قائل: إنهم يرفقون بأنفسهم في الدرس رفقاً يحفظ عليه بهجة الراحة، ويقول قائل: إن سمرة أديمهم تخدع الناظر، تخدع سمات الجد والنصب، وآثار السهر الطويل في المذاكرة والتحصيل، وكذلك شأن طلابنا في مصر نفسها، وكلا التأويلين محتمل في الجميع.

وإذا ذُكر الطلاب المصريون، وجب إعلان الإعجاب بشبان تتزين بهم مجاميع التلاميذ المصريين في بلاد أوروبا المختلفة، ونسمع ذكرهم

(١) المصدر السابق، ٣٣.

obeikandl.com

ثناءً مستطاباً، وهم على قلتهم رجاء النيل والأهرام، وعزاء مصر اليوم، وذخرها لمستقبل الأيام" [١].

وربما نرى في الإشارة السابقة عن الطلبة اليابانيين النابهين في الدرس سراً من أسرار التفوق الياباني الحديث، حيث يعد اليابانيون من أكثر الشعوب جدّيّةً في تحصيل العلم، و كان سر نهضتها الرائعة بعدما حدث لها من تدمير وتخريب في الحرب العالمية الثانية، هو اهتمامها الحقيقي بالتعليم، مما أدى إلى تفوقها وجعلها في ريادة الدول الصناعية المتقدمة.

ونطالع في رحلة الكاتب **حسين فوزي**[٢] وصفه للجامعات والكليات والمعاهد الأمريكية، مما يجعلنا نود لو أن هذه الدور العلمية العريقة في بلادنا العربية، وهو حين يصف تلك الجامعات السامقة، يتحسر في نفس الوقت على حال الجامعات المصرية[٣]، فكأنه يعقد مقارنة بين حال الدول العلمية في بلاده، وما رأى في الغرب، حتى إنه

---

(١) المصدر السابق، ٣٣.

(٢) حسين فوزي: حسين فوزي النجار (١٩٠٠ – ١٩٨٨م)، ولد في القاهرة وتعلم ودرس في الكتاتيب وحفظ القرآن الكريم. ثم دخل المدارس المدنية ودخل كلية الطب، ولكنه تخصص فيما بعد في دراسة الأحياء المائية وعلوم البحار. وكان له نشاط واسع في هذا المجال.
من مؤلفاته:
- سندباد في رحلة الحياة.
- سندباد إلى العالم الجديد.
- سندباد في سيارة.
انظر: الغرب بعيون عربية، نخبة من الكتاب، الكويت، ٢٠٠٥م، وزارة الإعلام، مجلة العربي، كتاب العربي، ٢٠٠٥م، ١٠٨/٢.

(٣) انظر: سندباد إلى العالم الجديد، حسين فوزي ،٤١.

obeikandl.com

أخذ يحصي ما تصرفه الحكومة الأمريكية من مليارات الدولارات على الجامعات بميزانيات ضخمة[١]، تكاد تفوق ميزانيات دول شرقية بأكملها.

ويتشابه هذا الحس العميق لدى الكاتب بالحس العميق الآخر، الذي وجدته عند الكاتب أحمد عطية الله، في أثناء رحلته لعاصمة الضباب لندن، حيث تحدث عن جامعة لندن التي تضم آلاف الطلبة من كل بلاد الدنيا شرقاً وغرباً.

وهو يعوّل كثيراً على طلبة الدول النامية، بعد رجوعهم لأوطانهم للعمل على تطويرها وإفاقتها من سباتها[٢].

وفي جانب مجتمعي مهم يؤطر لمفهوم الوحدة الشاملة والجامعة لمصالح الدول المتجاورة، تطرق عبد الوهاب مطاوع في إحدى مقالاته لموضوع الوحدة الأوربية، عندما عبر في رحلة طويلة برية بعض الدول الأوربية، يقول: "وفي الصباح ركبنا السيارة عائدين من نفس الطريق إلى باريس عبر بلجيكا... وانبهرت خلال رحلة العودة التي استغرقت ست ساعات مرة أخرى، بمعنى الوحدة الأوربية التي قرأت عنها الكثير... ففي رحلة الذهاب شاهدنا عند بوابة الحدود الفرنسية البلجيكية جنديين أو ثلاثة يتفقدون السيارات المغادرة لفرنسا للحظات، ويرون جوازات السفر وهي مغلقة، قبل أن يشيروا للسيارات بمواصلة

(١) انظر: المصدر السابق، ٤٢.
(٢) انظر: لندن،٣٠٠.

obeikandl.com

السير في طريقها دون فتح الجوازات، أما في رحلة العودة فلم نرَ جندياً واحداً، ولا رجل جمارك بين هولندا وبلجيكا وفرنسا. وعبرنا حدود ثلاث دول، دون أن يوقفنا أحد، أو يطلب الاطلاع على جوازات سفرنا، أو يسألنا: من أين جئتُم، ولا إلى أين تذهبون. وكأننا في رحلة داخلية من القاهرة إلى أسوان." [١]

والكاتب يشير بعد ذلك بتأمل كيف اندحرت وانطوت صفحة الخلافات والاختلافات، التي رسمت تاريخ أوربا خلال القرنين الأخيرين، فتغلبت على دوافع النزعات القومية والاختلافات المذهبية واللغات المختلفة، وغيرها من الاختلافات، لتجعلها ضمن رؤية شاملة دوافع للاندماج والاتحاد والتنوع والقوة. ومما لفت انتباهي في هذه النقطة وجهة نظر إرهاصية مبكرة لمؤرخ عربي [٢]، يتنبأ فيها بحتمية حدوث الوحدة الأوربية، وإزالة العوائق بين القوميات المتنافسة، والوصول لمرحلة (فوق القومية)، مرحلة تتطلع فيها هذه الدول " إلى اتحاد أعم وأشمل " [٣]

---

(2) سائح في دنيا الله: ٩٤.

(١) وهو الأستاذ نور الدين محمد حاطوم ، مؤرخ وأستاذ للتاريخ الحديث. درس في بعض الجامعات العربية وكان عميداً لكلية الآداب بجامعة دمشق ، من مؤلفاته: الموسوعة التاريخية الحديثة أنظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

(٢) مجلة عالم الفكر ، الكويت ، نور الدين حاطوم ، مقالة بعنوان "خصائص حضارة العصر". ص ٣٣.

obeikandi.com

وأنا أتناول هذه النقطة تمنيت بأن يحدث بين دولنا العربية والمسلمة المتجاورة من الوحدة والائتلاف، ما حدث للدول الأوربية، التي أيقنت بقوة فكرة الاتحاد الجامع بين دولها، لتتوحد عملتها النقدية وتتساوى فرص العيش الكريم بين كافة دولها، بلا حواجز ولا مضايقات و عوائق مختلفة. فنحن لدينا من الأسباب المشروعة ما يُشرّع فكرة السعي الطموح للاتحاد بين كافة الدول العربية، وإزالة الحواجز الحدودية التي وضعها الاستعمار بعد انهيار الخلافة العثمانية.

ومن الجوانب التحديثية النشطة في الحياة الثقافية الغربية، حركة التأليف والترجمة، كل منها عالم قائم بحد ذاته، وتعمل آلاف المؤسسات العلمية المتخصصة في هذين المجالين. والمؤلف في الغرب دائما يجد من يرعاه ويرعى موهبته، ويحافظ له على حقوقه الأدبية و المعنوية بنزاهة وشفافية، ويذكر محمد عناني أنه في خضم إقامته الطويلة في بريطانيا، كتب وألف بعض المسرحيات والكتب، بل واتجه إلى التلفاز وكتب له برامج وتمثيليات. وفي ذلك الوقت لفت نظره مكاتب الوكالات المتخصصة في هذا المجال. فلكي يخرج أحد مؤلفاته للنور عليه الذهاب إلى إحدى تلك المكاتب المتخصصة في فحص الكتاب ورؤية ما إذا كان قابلاً للنشر و التسويق أم لا.

obeikandi.com

كان أمراً جديداً عليه، وهو الذي أمضّه معاناة وضياع حقوق المؤلف، شأنه شأن أغلب المؤلفين في العالم العربي، "وتساءلت ما الوكيل ؟وما التعامل مع الوكلاء؟"[١]

إلى أن عرف أن الوكيل هذا هو مؤسسة تتبع رجل أعمال له قدرة إدارية عالية. والمؤسسة يعمل فيها مجموعة رفيعة من النقاد والمحررين والمراجعين و المحامين، مجموعة لا يشترط فيها تمثيل القيم الأكاديمية الجامعية فقط ، بل تضيف إليها ما يريده القراء[٢]. مجموعة قادرة على استشفاف الذوق الأدبي في المجتمع، وتتميز بنظرة مستقبلية لمعرفة اتجاهات هذا الذوق الأدبي العام، وما يطرأ عليه من تحولات وتغيرات"ومن ثم الدفع بالإنتاج الجديد إلى السوق"[٣]

والمشكلة أن الكاتب عندما تحدث عن تجربته هذه مع الوكالات المكتبية، وتعرف على ما يسمى حاليا بحقوق الملكية الفكرية، وعن جذورها الراسخة في الفكر التجاري الإنجليزي، كان هذا في عام ١٩٧٥م، ومن المؤسف أننا في عالمنا العربي – إلى الآن – لا نزال مبتدئين في فهم أبجدية هذه المسميات.

****

(١) واحات الغربة ٢ / ١٧٥
(٢) انظر: المصدر السابق ٢ / ١٧٦.
(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٦.

obeikandi.com

النشاط الثقافي الآخر وهو الأكثر أهمية وصلة في جانب دراستنا هذه هو: الترجمة.

فحركة الترجمة في الغرب قوية ومزدهرة إلى أبعد حد. تطرق لهذا **إبراهيم عبد المجيد**(٢) في رحلاته لأوروبا، وتحدث عن كثرة الترجمات المختلفة ومواكبتها لسائر فنون الأدب والنقد والثقافة والفن العالمية، معترفاً في الوقت نفسه بقلة باع التجربة العربية في مجال ترجمة آدابها للغات الأخرى. وهو يسلم بداية بصعوبة ومشقة الترجمة من العربية. وذكر أن عامة المستشرقين من الأوربيين المجيدين للغة العربية يتقصدون اختيار ترجمة ما يرونه ملائماً للفكرة الأوربية السائدة عن الشرق "المستبد المستحل للنساء.....إلخ"(١)

ومن هنا طرح الكاتب أهمية دعم ومساندة المترجم العربي لأدب أمته

---

(٢) إبراهيم عبد المجيد: ابراهيم عبد القوى عبدالمجيد(١٩٤٦ -) قاص وروائي. تخرج من كلية الآداب بجامعة الإسكندرية عام ١٩٧٢م
ارتحل إلى القاهرة وشغل مناصب ثقافية منها:
- مستشار بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مدير عام مشروع أطلس الفلكلور بالثقافة الجماهيرية.
له عشر روايات وخمس قصص منها:
- لا أحد ينام في الإسكندرية.
- البلدة الأخرى.
- الشجر والعصافير.
=- سفن قديمة.
انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(١) أين تذهب طيور المحيط ، إبراهيم عبد المجيد. دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، ط ١/ ٢٠٠٣ م ، ٦٥

obeikandl.com

للغات الأمم الأخرى، فهو بلا ريب سيكون أكثر صدقاً وأخلاقاً، وخالياً من المآرب الخفية والمشبوهة لترجمة المستشرقين.

وفي الحقيقة نحن في هذا الوقت الراهن أحوج ما نكون لالتماس الطرق السليمة للتواصل والتفاهم مع الأمم الأخرى.

* إن من الحزن والمؤلم عدم التقاء وتواصل الطرفين الغرب (أوروبا تحديداً) مع العالم العربي، بالرغم من القرب الجغرافي الهائل، وهي مشكلة عقدية أولاً وأخيراً، ولم تكن نقاط وظروف الالتقاء في الماضي إلا قاتمة السواد. إن في سقوط الأندلس، ثم سقوط الخلافة العثمانية، وقبل ذلك عبر الحملات الصليبية المتعددة – وعبر إفك وكذب المغرضين من المستشرقين ورجال الدين المسيحيين، وكثير من الصور المترسخة في الأذهان (عبر القرون) – لا ترى العربي إلا وثنياً جباناً سرعان ما ينهزم أمام الأبطال المسيحيين. وهذه الصورة مأخوذة من الأناشيد والملاحم الدينية القديمة[١] إبان عصور الحملات الصليبية.

أما الصور الأخرى، فغالباً ما تكون مستوحاة من كتاب ألف ليلة وليلة وهي صور مغلوطة ومشوشة[٢].

---

(١) انظر: الأدب المقارن ، محمود غنيمي هلال ، دارة العودة ، بيروت ط ٣ / ١٩٨٣م ، ٤٢٢.

(٢) انظر: المرجع السابق ٤٢٣.

obeikandi.com

ولاشك بأن هذه الصور الذهنية المستقاة من المصادر الثقافية – أياً كانت صحتها – لها من الأهمية والتأثير شأن خطير. فهي تنعكس على علاقات الشعوب ببعضها بعضاً. ولها صدى وتأثير على عقول سادة الأمة من الساسة والمفكرين في تكوين رأي عام عن تلك الشعوب[١] وتتأثر تبعاً لذلك فرص التفاهم والتعاون بين الشعوب بحسب تلك الصور الذهنية العامة.

(٣) انظر: المرجع السابق ٤٢٨.

obeikandl.com

فالتحديث مطلب مشروع للنهضة والرقي المجتمعي. ولاشك أن البدايات السليمة في الرؤية والتنظير والتخطيط تؤدي إلى نتائج واعدة ومُبشّرة للخروج من مثلث التخلف الكامن في الفقر والجهل والمرض. ولا يكون التحديث بالانسياق الاعتباطي لركب الحضارة عبر استيراد النموذج الغربي جملة وتفصيلاً، بعد أن ظهرت للجميع مساوئ وعيوب التغريب أو الحداثة بالمفهوم الغربي، وما يُعرف بأمركة العالم أو العولمة.

ولا ننسى أن العالم دخل منذ عقد من السنوات منظومة العولمة التي لا تعترف بالحواجز المرورية والجمركية، مهما ابتعدت المسافات التي أصبحت مقولة: (العالم قرية واحدة) أصدق ما تكون حالياً.

والعولمة لا تستهدف فقط إلغاء الحدود الجغرافية والجمركية، وتسهيل نقل الرأسمالية عبر العالم كسوق كونية لمصلحة الدول الكبرى بل تستهدف نقل المنهج الرأسمالي في الرؤية والتفكير وأسلوب الحياة[1]، وفرض منظومة الأخلاق والمفاهيم الغربية فرضاً على الشعوب الأخرى، بما في ذلك المفاهيم الفاسدة من محرمات وتجاوزات للدين والعقيدة والأخلاق.

(١) انظر: وقفات حول العولمة، علي بن إبراهيم النملة، كتيب المجلة العربية، ع ٧٣، ١٤٢٤هـ، ١٢ وما بعدها.

obeikandl.com

يقول عبد الوهاب المسيري في سيرته:

"لعل مخاوفنا من العصر الحديث تنبع من معرفتنا لا بسيناريو التحديث وحسب وإنما بعواقبه أيضاً، فنحن نقرأ الصحافة الغربية وندرس المجتمع الغربي، وغير المتخصصين يسمعون عن المخدرات والجريمة. لذا حينما نتحرك إلى العصر الحديث فنحن لا نتحرك بتفاؤل شديد، إذ إن معرفتنا المأساوية بما حدث هناك، وبالثمن الفادح الذي سيُدفع، يُقلل من حماستنا بعض الشيء"(١).

وهذه خلاصة مُنظّر عتيد بنظرته الشمولية وتجربته الطويلة في تبني ونبذ المذاهب الفكرية، من الشيوعية بدرجاتها وفلسفاتها، إلى العلمانية الغربية ومفاهيمها المتناقضة والمتأصلة في البُنية التركيبية للحضارة الغربية، حتى وصل إلى المذهب أو إلى الرؤية الإيمانية الربانية الشاملة عبر الموازنة بين الدارين.

فالمطلوب هو التحديث للارتقاء المتوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي، من غير أن يطغى أحدهما على الآخر.

ولا بأس من أن يستفيد هذا التحديث من تجارب التنمية الحضارية الإيجابية وعدم قبول المشروع الحضاري الغربي على علاته، وما صاحبه من انتكاسات اجتماعية أتت على الأخلاق والقيم الإنسانية.

---

(١) رحلتي الفكرية، ٢٢٥

obeikandi.com

وهنا ينبغي علينا التفريق بين التحديث والتغريب.

فالتحديث مطلب إنساني للجميع لبناء وتقـــدم ورفاهيـــة الإنســـان وسعادته، أما من اعتقد بأن هذا التحديث لن يأتي ويتحقق إلا بالسير على النهج الغربي، فقد أثبتت السنوات والأحداث الفكرية والاجتماعيـــة بـــل والاقتصادية كذلك، خطأ هذا الاعتقاد.

obeikandl.com

المبحث الثالث

الوجود الإسلامي في الغرب

يعود الوجود الإسلامي في الغرب إلى عهود مبكرة[1] ،فهناك إرث تاريخي مشترك في إسبانيا إبان الحكم الإسلامي، حينما كانت تُعرف بالأندلس، إضافة إلى هذا كان هناك حضور للهجرات المغولية المسلمة في أثناء توسعها شرقاً باتجاه شمال وشرق أوروبا.

وازداد التواجد الإسلامي في أوربا بعد ذلك في عهد الخلافة العثمانية، لما كان يربط مركز الخلافة (تركيا) بجيرانها الأوروبيين من روابط سياسية واقتصادية.

أما في العصر الحديث وبعد قيام النهضة الصناعية في الغرب فيعود تزايد الوجود الإسلامي في الغرب إلى سببين أساسيين:

- حاجة الغرب إلى الأيدي العاملة الرخيصة للقيام بأعباء النهضة الصناعية، وتحديداً في الأعمال الشاقة "التشييد والأشغال العامة

(١) انظر: المسلمون في أوروبا، يورغن نيلسن، ترجمة : وليد شميط، دار الساقي، ط ١، ٢٠٠٥م، الفصل الأول.

obeikandi.com

والصناعات المعدنية، وصناعة السيارات"[١] ولاسيما في بدايات النهضة الصناعية.

- السبب الآخر للوجود الإسلامي في الغرب يعود إلى استقبال الغرب للاجئين الهاربين من مخاطر العيش في بلدانهم الأصلية. ويستقبل الغرب عشرات آلاف اللاجئين[٢] السياسيين من جميع أنحاء العالم. ويعود فتح أبواب الهجرة للاجئين لمبدأ أخلاقي أساسي للغرب، وهو الحق الإنساني لجميع الناس بالحياة في بيئة آمنة، وتوفير سبل العيش الكريم لهم، بغضّ النظر عن هوياتهم وأديانهم وأعراقهم.

وبشكلٍ عام ، يُتيح الغرب مجالاً واسعاً للتسامح مع الآخرين المختلفين عنهم، وخاصة في التوجهات الدينية ،واحترام خصوصيات هذه العقائد ، ولا أدل على ذلك من توفير أماكن للعبادة المنتشرة في كافة البلدان الغربية.

---

(١) صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، مارلين نصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٩٥م، ٢٤٩.

(٢) انظر : المسلمون في أوروبا ، الفصلين الأول والثالث .

والجدير بالذكر أن موضوع الهجرة أصبح من أولويات السياسة الغربية في الوقت الحاضر لتداخل هذا الموضوع / القضية ، في النسيج الاجتماعي الغربي، وتأثيره الكبير فيه على جميع الأصعدة ، ولم يعد باب الهجرة مفتوحاً على مصراعيه ، بل أصبحت له أنظمة وضوابط تُعدّل باستمرار.

obeikandl.com

ومن المعروف أن انضمام عشرات الآلاف من المقاتلين المغاربة والتونسيين والجزائريين إلى الجبهة الفرنسية للدفاع عنها إبان الحرب العالمية الأولى، أوجد شعوراً بالامتنان الفرنسي[١] تجاه أولئك المقاتلين المسلمين الذين قاتلوا جنباً إلى جنب الفرنسيين في الحرب، فقدمت الحكومة الفرنسية هبه لبناء مسجد في باريس، افتتح عام ١٩٢٦م، فشرع المسلمون في بريطانيا في افتتاح مسجد لهم، وتطلّب الأمر سنوات ،حتى تمّ افتتاح الملك جورج السادس للمركز الثقافي الإسلامي بلندن عام ١٩٤٤م[٢]، وبعد ذلك توالت الإنجازات المشهودة لمسلمي بريطانيا.

ولاشك بأن للجاليات المسلمة في الغرب ثقلها وأهميتها ،حتّى يُسمح لأفرادها بممارسة شعائرهم، وتدريس الإسلام ضمن مؤسسات خيرية، أو مدارس تقف عليها جهات تمويل مُعترف بها رسمياً. وقد استطاع المسلمون في بريطانيا الجهر بالآذان في مدينة برمنغهام ذات الأكثرية المسلمة، واستُخدم مكبّر الصوت لرفع الأذان لأول مرة في الثمانينيات الميلادية[٣] ، ويحضرني ما قرأته للكاتبة رضوى عاشور عندما نزلت في باريس بطريق عودتها من الولايات المتحدة للقاهرة:

---

(١) (٢) انظر: المرجع السابق، ٢٤ ، ٢٥.

(٣) المرجع السابق، ٩٩.

obeikandi.com

"وأنزل في فندق متواضع بحي عمالي، أنام ساعتين ثم أعود إلى الشارع لكي أرى، ولكني أسمع، هل هو الحنين الذي يتبعني صار لـــه صوت كصوت المؤذن ساعة الغروب، ولكنني أسمع صوت المؤذن يعلو صافياً في ذلك الحي العمالي الفقير، أتبع الصوت وقبل أن أصله ينتهـــي الأذان، ثم يعقبه غناء لفريد الأطرش. أصل إلى حانة للعمال المغاربـــة هي مصدر ما سمعت"[١].

وكانت رحلة الكاتبة في السبعينات الميلادية.

وتسمح الولايات المتحدة الأمريكية كذلك بالأذان جهراً في بعض ولاياتها مثل ولاية ميتشيغان على سبيل المثال، للوجود الإسلامي الكثيف فيهـــا. وقد أشار أكثر من كاتب لبعض أقدم مساجد أوروبا ،مثل مسجد بـــرلين ومسجد باريس وجامع لندن.

أما مسجد باريس فقد تحدث عنه الكاتب زكي مبـــارك،في أثنـــاء وجوده في باريس، وقد زار هذا المسجد و تجوّل فيـــه ،و فـــي أفنيتـــه المحتوية على أحواض المياه ، وأعجب بالنقوش العربية الدقيقـــة التـــي تزدان بها الجدران والسقوف[٢]، ممّا ذكـــره بالأفنيـــة الأندلســـية فـــي مساجدها، يشير الكاتب إلى أنه ذهب إلى باريس لأداء صلاة الجمعـــة، فشعر بروح الإيمان تسري في مشاعره ودواخله، ونظر إلى المصـــلين،

(١) الرحلة، ٩٤.
(٢) ذكريات باريس، ١١٨.

obeikandl.com

فإذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيماء الخشوع، وبعد برهة فُتح باب صغير، فأقبل الخطيب الذي صعد المنبر، وخطب خطبة بليغة ،ثم نزل فأمّ الناس في الصلاة[١].

أما مسجد برلين، فيقول الكاتب محمد ثابت: إنه مسجد بُني على طراز مغولي كأنه "تاج محل"، وفيه مئذنتان، وبجواره منزل صغير للإمام، وقد تم البناء في عام ١٩٢٧م، واعتنق بعض أهل برلين الإسلام بفضل أنشطة المسجد ومحاضراته[٢].

أما جامع لندن المسمى (ووكنج)، فهو كما يقول الكاتب أحمد عطية الله، تحفة فنية لدقتها وبراعتها، وأمام هذا البناء مكان فسيح أخضر، به بيت للضيافة، ودار لإمام هذا الجامع[٣].

وفي أيام الأعياد تفد الوفود إلى هذا الجامع من لندن وغيرها، وتصبح هذه المنطقة كأنها في عيد، وترى هذه الأفواج في ملابسها الزاهية، حيث جموع الهنود بلحاهم المرجلة وعمائمهم، والمصريين بطرابيشهم، والعراقيين بفيصلياتهم، وغيرهم في ألوانهم وأزيائهم التي تجعل منظر هذه الوفود نادراً في لندن. وترى وفود الإنجليز، المسلمين

---

(١) المصدر السابق، ١٢٣.
(٢) انظر: جولة في ربوع أوروبا، ١٢٥.
(٣) لندن، ٣٢٩.

obeikandi.com

وغير المسلمين من أصحابهم، أو ممن يحضرون لمشاهدة هذا المنظر الرائع؛ ليُشاهدوا مواكب الشرق تحيي تقاليده في مهجرها[١].

ولا تقتصر إنجازات الجاليات المسلمة على توفير أماكن العبادة والاعتراف بها في الغرب فقط، بل استطاع المسلمون الحصول – تدريجياً– على كثير من الامتيازات والحقوق كالاعتراف بالرسمي بعقود الزواج وتوثيقها، وإنشاء المدارس الخاصة بتعليم الإسلام واللغة العربية، والحصول على عطلة في الأعياد الدينية ،وتوفير مدافن خاصة بالمسلمين، والاعتراف بحقوق المسلمين داخل الجيش والسجون والمستشفيات[٢]، وينبغي إدراك أن هذه الامتيازات والحقوق جاءت ثمرة جهود دؤوبة، استغرقت سنوات طويلة لإقرارها[٣].

وقد أوجد تزايد الجاليات المسلمة بصورة فائقة في المجتمعات الغربية تساؤلات مُقلقة عن مدى تأثير هذه الجاليات على واقع المشهد العربي في كافة الأصعدة، اقتصادياً ودينياً وثقافياً، لاسيما مع ارتفاع البطالة في الغرب نفسه.

---

(١) انظر: المصدر السابق، ٢٦.
(٢) انظر: المسلمون في أوروبا، ١٦٨.
(٣) تجدر الإشارة إلى أن كافة الامتيازات المذكورة هي مجموع ناتج الامتيازات في دول الغرب بصورة عامة.. فليست كل الدول الغربية تمنح جميع هذه الامتيازات، بل يختلف الوضع من دولة لأخرى.

obeikandl.com

وكذلك ارتفاع عدد معتنقي الإسلام، وقد أشار بعض المراقبين في فرنسا مثلاً أن حقبة التسعينات الميلادية شهدت اعتناق عشرة آلاف شخص الإسلام سنوياً [1] ،هذا في فرنسا فقط. وتصاعد الأمر حتى أصبح الإسلام الديانة الثانية في أوروبا، وكذلك في أمريكا، كما عُدّ الديانة الأسرع انتشاراً، ما حدا بحركات اليمين المسيحي المتشدد للمناداة بضرورة تحجيم وضبط الوجود الإسلامي فيها. وقد عانى المسلمون خاصة في العقد السابق من بعض الممارسات العنصرية المناهضة للمسلمين، ففي بدايات هذا الوجود لم يكن للعنصرية صوت عالٍ يُجهر به على نحو رسمي.

- والحقيقة التي لا غبار عليها أن التمييز العنصري واقع معايش وملموس في الغرب، بغضّ النظر عن شرائح المهاجرين المختلفة فيه. وقد عاشت الولايات المتحدة الأمريكية بالذات فصلاً تاريخياً طويلاً، مارست فيه الرق والعبودية ضد السود إلى درجة مُريعة، وناضل السود نضالاً طويلاً وقاسياً؛ للحصول على بعض حقوق وامتيازات البيض، فالتمييز العنصري حقيقة ومُسلّمة من مُسلّمات المجتمعات الغربية، وهو منتشر في كافة ألوان الإبداع في الأدب والفن والرقص والموسيقى، ليس فقط بسبب لون البشرة، كما كان سابقاً في عهد العبودية، بل بسبب الانتماء كذلك "فالغرب الأبيض

(١) انظر: المسلمون في أوروبا، ٣١.

obeikandi.com

يشعر بتفوقه العام على نظيره الإفريقي والآسيوي واللاتيني بصورة أساسية"[1].

مع أن عشرات آلاف الكوادر العلمية في الغرب من أصول آسيوية وأفريقية ،ولكن النموذج المهيمن للصورة الذهنية عن هؤلاء هو النموذج الأدنى والأقل ذكاء من نظيره الغربي، وسأورد بعض الأمثلة عن هذه الصورة النمطية المغلوطة الشائعة في الغرب.

- ذكر الدكتور المسيري في سيرته خلال وجوده في الولايات المتحدة لدراسة الدكتوراه ،أن ابنته نور عندما التحقت بالمدرسة جاء تقريرها الدراسي لكافة المواد مرتفعاً ،إلا في مقرر اللغة الإنجليزية، وهذا أمر طبعي بالنسبة لها كعربية قادمة للتو لأمريكا، ولكن بعد مرور أشهر جاء التقرير التالي، وكانت درجة الطالبة لازالت متدنية، فما كان من والدتها إلا أن ذهبت للمدرسة لمناقشة معلم اللغة الإنجليزية، الذي أصابته الدهشة والاضطراب فقرر عقد امتحان للطالبة لإنهاء الإشكال "وحين عُقد الامتحان، وحضره معها طفل أسود، أثبت التلميذان أنهما متفوقان بشكل مدهش وأن تصنيفهما "دون المتوسط" كان تصنيفاً جائراً.. وما حدث هو أن المدرس اكتفى بقولبتهما في إطار دون

(١) المرجع السابق، ١٨١ بتصرف يسير.

obeikandl.com

مستواهما"[1]. بل إن المدرسة أرسلت للوالدين بعد عامين فقط لتخبرهما بإمكانية دخول "نور" الجامعة[2]. وهي مازالت دون الرابعة عشر عاماً، ومع ذلك رفض الوالدان العرض حرصاً على براءة وطفولة هذه المرحلة العمرية المهمة في حياة ابنتهما، وفضّلا أن تكون بجانب أقرانها في الدراسة.

فهذا الأستاذ الأمريكي نموذج شائع للتفكير الغربي آنذاك- في السبعينيات الميلادية، وهو قولبة الذهن ضمن إطار ثابت حول فئة أو جنس معين.

- المثال الثاني ذكره محمد عناني في واحاته، حين تحدث عن رجل أفغاني اسمه الدكتور أشرفي، جاء إلى لندن بشهادة جامعية مُزورة من جامعة كابول في تخصص الطب النفسي "وسمحت له السلطات الطبية بممارسة المهنة، فبزغ نجمه وذاع صيته، واغتنى، وفتح لنفسه عيادة كبيرة يعمل فيها كثير من الأطباء الإنجليز، وتزخر بالممرضات والأثاث الفاخر والأدوية والكتب، ولم يعد أحد يتساءل عن تخصصه، لاسيما بعد أن أصبحت عيادته كعبة يحج إليها أبناء الطبقة الراقية، بل وأصبح الأجانب يؤمونه،

(١) رحلتي الفكرية، ٢٣٣ .
(٢) انظر: المصدر السابق، ٢٣٣.

obeikandl.com

وخصوصاً ذوات الثراء الفاحش من الأمريكيات اللائي عجزن عن شفاء أنفسهن في أمريكا"[١].

لكن المجلس الطبي البريطاني وفي نهاية الأمر حكم بشطب اسم الدكتور من سجل الأطباء، وطالب بترحيله إلى بلاده، وتعقد الأمر بسبب زواج الدكتور أشرفي من إنجليزية ،وحصوله على الجنسية البريطانية – تبعاً لذلك. وقد شُغلت الصحافة والتلفزيون ما بين مؤيد ومعارض، وظهر أستاذ شهير– وهو يهودي من أصل ألماني– يشرح استحالة نبوغ رجل من أفغانستان، حتى من باب الاستثناء ،وهو ينادي بتفوق الجنس الأبيض، وله كتاب يؤيد فيه اعتقاده هذا بعنوان "تفاوت البشر"[٢].

وتُصوّر سيَر المرتحلين للغرب هذا الشعور بالفوقية تجاههم بدرجات متفاوتة بين الحساسية وبين الاستنكار، وقد صوّرت رضوى عاشور هذا الشعور في رحلتها، عندما حضرت حفلة عرس أحد زملائها في الكلية، وهو مايكل الشاب الأمريكي الأسود المرح والمتواضع، وكان حضور الحفل خليطاً من منتسبي الكلية طلاباً وأساتذة.. وتوزع الحفل بين العشاء والثرثرة والرقص، تقول:

---

(١) واحات الغربة ١٠٤/٢.
(٢) المصدر السابق ١٠٣/٢.

obeikandi.com

"حين رقصت قبل دقائق مع ذلك الرجل الأبيض الذي يدرّس بقسم اللغة الإنجليزية، راعني أنه لا ينظر أمامه وهو يرقص، لماذا طلبني للرقص إذن؟ كان مستوعباً بشكل مطلق في ذاته، فلا يرى الآخر أمامه.

لماذا طلبتني للرقص أيها الرجل الأمريكي؟ ها قد أصبتني بالكآبة! والشاب الأمريكي الأسود يعلّمني الرقصة ،فلا أتحرج من ثقل جسدي المتعثر في الحركة، ويسميني "أختي" على عادة الأفرو-أمريكيين فيما بينهم، ويرقص، ويطلق صافراته، ويضحك، ويثرثر، لقد أتى إلى بيت العرس حاملاً هديته سلة من الفرح"(١).

ولاشك لدي – وأظن لدى قارئ النصّ كذلك – بفوقية ذلك الرجل الأبيض ،ونظرته المتشبعة ببقايا الروح الاستعمارية الغابرة من علو واستعلاء، على كل من دونه من ملونين وأفارقة.

******

هجرة العقول قضية شائكة:

في الواقع لا يقتصر الوجود الإسلامي في الغرب فقط على العمال المغاربة والأتراك ونحوهم، أو اللاجئين الهاربين من جحيم الواقع السياسي والاقتصادي في بلدانهم، فهناك شريحة واسعة من المسلمين

(١) الرحلة، ١٠٤ ، ١٠٥.

obeikandi.com

يعيشون في الغرب لحاجة الغرب إليهم، وتحديداً إلى عقولهم النابهة أولاً وأخيراً.

فلا يخفى على أحد أن الغرب – وخاصة أمريكا– يرحب بهجرة العقول الذكية من شتى أصقاع العالم، وما بلغت الولايات المتحدة ما بلغته من تطور تكنولوجي واقتصادي إلا لاعتمادها على أبحاث المبدعين فيها، وليس من قبيل الصدفة أن أكثر حاملي جائزة نوبل من ذوي الجنسية الأمريكية. فالولايات المتحدة –وأوربا كذلك– حريصة كل الحرص على تقديم أفضل العروض المغرية لإبقاء المتميزين فيها، فتمنحهم حق الإقامة الدائمة فيها، والجنسية، وكافة أسباب العيش الرغيد، وتوفر لهم كذلك البيئة العلمية اللازمة لأبحاثهم وتجاربهم ونظرياتهم.

وقد نشرت دراسة متخصصة موضوعاً عن هجرة الأدمغة، تشير إلى أنه ومنذ بداية الستينيات الميلادية وحتى السبعينيات، هاجر من البلدان النامية قرابة نصف مليون متخصص[1] في أهم المجالات العلمية، ما بين علماء ومهندسين وجراحين

ولقد أصدرت لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الأمريكي تقريراً يفيد بأحقية البلدان الفقيرة بمطالبة الدول الصناعية بتعويض مقابل

(١) قضايا معاصرة في الحضارة الإسلامية، إعداد وترتيب صبحي عبد الحفيظ قاضي، دار الرائد العربي، بيروت ط ١ / ١٤٠٤هـ، ٣٢٥.

obeikandl.com

استفادة الدول الصناعية من الكوادر العلمية القادمة من تلك البلدان [١]. ربما- من هذا المنطلق- أنشأت دولة نامية كالفلبين مثلاً عام ١٩٧٤م، (لجنة تنمية العمل في الخارج)، وتحصّلت البلاد خلال ثلاثة أعوام فقط على ٢٣ مليون بيزوس كضريبة على الدخل، دفعها رعاياها المقيمون في الولايات المتحدة وكندا وألمانيا الغربية[٢]. فلماذا لا تستفيد الدول العربية والإسلامية من تجارب الآخرين، وتنشئ مصدراً مهماً للناتج القومي؟ مع الأخذ بالاعتبار أن تكون هذه الضريبة مبلغاً شبه رمزي، أو أكثر بقليل حتى لا تُثقل كاهل مواطنيها في المهجر.

وقد شرعت بعض الدول النامية والواعدة -مثل الهند- ببرامج استقطابية لكفاءتها المهاجرة، عبر تقديم فرص وظيفية مُجزية، وتسهيلات معيشية مغرية، منها: "تنظيم وتبسيط عملية إنشاء الشركات والمحافظ الاستثمارية، ورعاية المشاريع الصناعية، وتوفير قوانين الاستثمار السهلة، وتحسين مستويات المعيشة والخدمات العامة، وتأسيس نظام ملائم للمعاشات التقاعدية والأجور، وتحسين الإجراءات الأمنية والاستثمار في البنية التحتية"[٣].

ببساطة: أي التحول من بلدٍ نامٍ إلى بلدٍ متقدم بمعنى الكلمة.

---

(١) (٣) انظر: المرجع السابق، ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) هجرة الأدمغة، جريدة الاقتصادية، ١٧ رمضان ١٤٣٠هـ، العدد ٥٨١٠.

obeikandi.com

وعلى المجتمعات العربية الاستفادة من تجارب الأمم الناهضة، لاسيما إذا ما عرفنا أن الدول العربية تخسر ما يقارب ١٠٥٧ مليار دولار سنوياً، بسبب هجرة الأدمغة[١].

ولا نستطيع في الواقع أن نُلقي باللوم على العلماء ونحوهم، لتفضيلهم البقاء في الغرب، وعزوفهم عن بلدانهم العربية؛ فالمبدع خاصة إذا كان في حقلٍ علمي – يحتاج بادئ ذي بدء بيئة علمية جيدة يجري فيها أبحاثه وتجاربه التي ربما تكلف عشرات الملايين، وهذا يصعب تحقيقه في أغلب الدول العربية. وعالم الفضاء المصري الدكتور **فاروق الباز**[٢] الذي رأس لسنوات طويلة وكالة الفضاء الأمريكية الشهيرة (ناسا)، لمّا أتمّ دراسته في الولايات المتحدة ،عاد إلى وطنه ليخدمه، فلم يجد من يوظّفه إلا في أحد أقسام وزارة الزراعة. والدكتور الباز واحد من عشرات، بل آلاف العقول العربية المهاجرة نحو بيئة توفر لهم مناخاً علمياً مناسباً ،وتقوم بتمويل أبحاثهم ودراساتهم ،ولاشك بأن المبدعين في الحقول العلمية والإنسانية كذلك، يخوضون تجربة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) **فاروق الباز** : من مواليد محافظة الدقهلية . ولد في أسرة بسيطة عام ١٩٣٨ م ، وقد حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة عين شمس عام ١٩٥٨ م ، ثم درس الماجستير و الدكتوراه بعد ذلك في الولايات المتحدة الأمريكية .
وفاروق الباز عالم جيولوجي فضائي، وقد سبق له أن عمل في وكالة ناسا الفضائية في الاستكشاف العلمي للقمر، لمعرفة تاريخ تكون القمر، وعلاقة تكوين القمر بتكوين الأرض ، وعمل كذلك في تدريب رواد الفضاء، وقد قام بتأسيس مركز دراسات الأرض والكواكب في واشنطن، وقد سبق له كذلك العمل كأستاذ جامعي في جامعات مصرية وأمريكية وألمانية . وقد حصل على جوائز عالمية وعربية كثيرة .
انظر : الموسوعة الحرة ويكبيديا .

obeikandl.com

وخيار البقاء في البيئات الغربية المتقدمة المناسبة لشخصياتهم المتميزة، أو العودة للوطن وخدمته ،مهما كانت الأوضاع الاقتصادية والعلمية متواضعة فيه. لاسيما أن أساتذة الجامعات في مصر مثلاً، لا يتميزون كثيراً عن غيرهم، من حيث المرتب أو العبء الوظيفي. ويذكر الدكتور عبدالرحمن بدوي في سيرته، أنه لما ذهب إلى باريس لأول مرة عام ١٩٤٦م وسكن في فندق (لوتسيا) بتكلفة يومية تعادل ثلاث فرنكات ونصف، ثم إنه لما عاد بعد أربعين سنة، وسكن ثانية في نفس الفندق ليجد سعر الغرفة تصاعد إلى سبعمائة فرنك فرنسي "أي إنها زادت مائتي مرة خلال أربعين عاماً، هذا بينما عضو هيئة التدريس في الجامعات المصرية، لم يزد إلا مرتين خلال هذه الأعوام الأربعين"(١).

وقد تطرق الدكتور محمد عناني أيضاً لهذا الجانب في واحاته، فذكر أنه في مطلع عام ١٩٧٥م، وعندما حان موعد العودة لمصر بعد حصوله على الدكتوراه، أخذ يفكر في خيار البقاء ببريطانيا، لاسيما بعد أن رُزق بطفلته سارة، وازدادت أعباؤه المالية، يقول: "وكان اهتمامنا منصباً آنذاك على الضائقة التي نعاني منها، فلدينا طفلة، والأجر الذي سأتقاضاه – إن شاء الله – في الجامعة محدود، إذ كان راتب المدرس الشهري ما يزال أربعين جنيهاً، زيد فيما بعد إلى ستين، وأذكر أنني عندما قدمت استقالتي، سألني رئيس مكتب الأخبار عن الراتب الذي

(١) سيرة حياتي ١٨٥/١.

obeikandl.com

سوف أحصل عليه في مصر، فقلت: ستون جنيهاً، ولم يدعني أكمل العبارة فقال: وهل تكفي ستون جنيهاً في الأسبوع؟ وتظاهرت بالانشغال بأشياء أخرى حتى لا أصحح له العبارة"[1].

فلا نستطيع أن نقلل من أهمية الدافع المعيشي لكل إنسان وحقه بتحسين مستواه الاقتصادي والاجتماعي، وتهيئته مستقبلاً زاهراً له ولأبنائه، لاسيما إن كان مواطناً من مصر ،أكبر بلد عربي من حيث الكثافة السكانية، وفي الحقيقة إن الهجرة للغرب ليست حلماً ورديا دائماً، بسبب مخاوف الانسياق ضمن دوامة المجتمعات الغربية، وقد تعرضت أغلب السير الذاتية لهذه الفكرة في صورٍ درامية حزينة بل مريرة.

ويذكر محمد عناني في واحاته قصصاً مختلفة عن زملاء له اختاروا البقاء نهائياً في الغرب ،مثل قصة صديقه (عبده) المُبتعث للندن لدراسة الدكتوراه ،فإذا به في نهاية المطاف يتخلى تماماً عن الدراسة، ويتزوج من زميلته الإنجليزية كاثلين، ويقطع علاقته بعد ذلك بكل ما يربطه بأهله- الصعايدة -، وعندما يسأله عناني عن أسرته، يرد عليه دون اكتراث: "لقد أدرت ظهري للشرق. ولن تصدق ما أعيش فيه من سعادة حتى تزورني"[2].

---

(١) واحات الغربة٢/٢١٠.
(٢) المصدر السابق، ٢/١٦٠.

obeikandl.com

ولا يعني هذا أن عبده – وهو صاحب القصة- جاحد متنكر لأصله ووطنه، فقد مر بتجربة عاطفية عصبية طويلة في قصته مع كاثلين، استمرت قرابة ست سنوات، ما بين هجر ووصال ولقاء وفراق، عاش فيها قلق الاحتمالات الممكنة ،سواء بعودته إلى مصر دون دكتوراه ،أو عودته مع زوجته كاثلين، والاكتفاء براتب متواضع للغاية، أو الإقامة النهائية في بريطانيا، والاستغناء عن وطنه وأسرته معاً، وهو – وإن كان قد اختار الإقامة في بلد زوجته الإنجليزية، وترك وطنه الأم- لا يجد نفسه، ولا يشعر بذاته إلا عندما يتحدث بالعربية، كما يقول لصديقه عناني.

وقصة عبده تكشف جانباً من الصراع أو الصراعات النفسية التي تنتاب طلاب العلم في أرض الاغتراب، ومثلها عشرات بل مئات القصص عمّن يأتون مؤقتاً كمبتعثين، ثم ينتهي بهم الأمر بالاستقرار نهائياً في الغرب. وفي تقرير أصدرته إدارة البعثات في الجامعة المصرية في السبعينات نص على أن "٤٠% فقط من المبتعثين للدراسة في الخارج يعودون إلى الوطن. والقضايا التي ترفعها الإدارة نادراً ما تُحسم، بل إن التهديد بسحب الجنسية لم يعد من الأسلحة الماضية"(١).

ويذكر الدكتور عبد الرحمن بدوي في أحداث عام ١٩٤٠م، بكلية آداب جامعة القاهرة ،عن عودة المبتعثين إلى فرنسا دون أن يحصلوا

(١) المصدر السابق، ١٦٠/٢.

obeikandl.com

على الدكتوراه _ باستثناء طالب واحد_[1] رغم قضائهم قرابة عشر سنوات، بل إن الوضع كان من السوء بحيث شمل الأقسام الأخرى وقد أرجع الدكتور بدوي السبب إلى قلة الذكاء المقرون بالكسل وعدم الرغبة في التعلم ،وأرجع هذا الوضع المتردي إلى المسؤولين الذين لم يحسنوا اختيار الموفدين في البعثات. وأذكر هنا الأديب والكاتب توفيق الحكيم الذي قضى في فرنسا سنوات لدراسة الدكتوراه ولم يحصّلها، لأنه ببساطة انشغل وذاب في معمعة الحياة الفرنسية، وافتتن بملاحقة روائع المسرح والموسيقى والأدب، والفتيات كذلك.. وكتب عن هذه المرحلة الزمنية الجميلة كتابه (زهرة العمر).

بينما في سيرة حياته (سجن العمر) وهي السيرة الخاصة به – داخل حدود مصر– منذ نشأته ودراسته، ومقدار معاناته من تقلبات الحياة، وخيبات أمله، حتى أسماها سجن العمر. ويستطيع المرء أن يلمح بسهولة ما تمثّل له كلتا السيرتين من عنوانهما فقط. وقد ختم سيرة سجن العمر بقوله:

"وعدت إلى بلادي.. عدت بالحقيبة ذاتها التي كنت قد حملتها معي، وكان بها بدلتان وأربع فانيلات وأربعة قمصان وستة مناديل.. عدت بها جميعاً لم ينقص منها شيء.. كما عدت بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت من كتب على مدى تلك الأعوام.. كل ذلك عدت به..

(١) انظر: سيرة حياتي ١/١٥٥ ، ١٥٦.

obeikandl.com

ما عدا شيئاً واحداً لم أعد به.. وهو ما ذهبت للحصول عليه: الدكتوراه في القانون.. فإن بطء الفهم عندي، وواعيتي الضعيفة، بالإضافة إلى أعباء الجهاد الثقافي الشامل الذي ألقيت بنفسي كلها في لجّته، مع النهم الفكري الذي استولى عليَّ أمام موائد الحضارة الكبرى.. كل هذا لم يترك لمثلي القوة ولا القدرة على حمل عبء آخر.

عدت فاستقبلني أهلي كما يُستقبل الخائب الفاشل.. وتصادف أن سمعوا أصوات فرح على مقربة من منزلنا، فلما سألوا عن الخبر، قيل إن سرادقاً أقيم، وأكواب "شربات" تقدم ابتهاجاً بجار زميل لي عاد من الخارج ناجحاً فالحاً ظافراً بشهادة الدكتوراه، فازداد مركزي سوءاً.. ورأيت الهم والغم والأسى في أعين أهلي.. وسمعتهم من حولي يتهامسون: "يا خيبتنا!.. يا خيبتنا!.." (١).

ومن المؤسف حقاً أن ينسى المبتعث الهدف الأساسي من إبتعاثه، وهو التحصيل العلمي أولاً وأخيراً، إلى جانب معايشة المجتمعات الغربية عن كثب، لاكتساب الخبرات والمفاهيم الإيجابية اللازمة للرقي والتقدم.. ويزداد الأمر سوءاً حين يتعمق الضياع والذوبان ليمتد إلى الأولاد، فليس كل مهاجر للغرب حريصاً بالضرورة على الالتزام بتعاليم دينه، أو على لغته العربية، وقد أشار يورغن نيلسن إلى أن شرائح كبيرة من أبناء المهاجرين المسلمين "لم يفلحوا في الدراسة، وباتوا

(١) سجن العمر، توفيق الحكيم، دار الشروق، القاهرة ط٢ / ٢٠٠٨م، ٢٢٤.

obeikandl.com

يرزحون تحت وطأة البطالة، وغيرها من أشكال التهميش الاجتماعي"[١].

ومن المحزن أن تعيش شرائح عريضة مسلمة في إطار التهميش الاجتماعي، وتوصم إليهم الأفعال المشينة، مثل الغش والخداع والسرقة[٢] ونحوها. ومسؤولية محو هذه الصورة النمطية مسؤولية فردية وجماعية، ولكن على المسلمين أولاً أن يدركوا حقوقهم كغيرهم من الأجناس المقيمة في الغرب، من ذوي الثقافات المختلفة، مثل الصينيين والكمبوديين والكوريين وغيرهم من الآسيويين والهنود من حملة الديانات المختلفة كالبوذية والهندوسية والسيخية، من الذين يحظون بالاحترام والتقدير أكثر من المسلمين المنتمين لمناطق جغرافية مختلفة في شتى دول العالم.

وأعتقد أن الذوبان في المجتمع الغربي يعود إلى شخصية الإنسان بالدرجة الأولى ، مع الاعتراف بشدة تأثير ضغوط المجتمع بكل مايصاحبها من خير وشر.

وإذا كنا- نحن الدارسين والباحثين - نرصد هذه الحالات ضمن مشكلات متشعبة، مثل تسرب الكفاءات العلمية من البلدان العربية، أو ضياع المرتحلين للغرب، وذوبانهم في خضّم المجتمعات

(١) المسلمون في أوروبا، ١٦٨.
(٢) انظر: صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، ٣١٧.

obeikandi.com

الغربية، فقد لايراها صاحب المشكلة كذلك – المهاجر الدائم أو المبتعث المقيم – ربما لكونه داخل دائرة التأثير.

والمشكلة في رأيي هي تضييع الهدف الأساسي للمجيء إلى أرض الاغتراب، والانزلاق بعد ذلك في متاهات هـذه المجتمعـات، لتـذوب أساسيات مكونات الشخصية – والتي تميز كل شخصية عـن أخـرى– وبدلاً من أن يضيف المغترب لشخصيته المسـلمة إيجابيـات الثقافـة والحضارة الغربية، فتزداد شخصيته عمقاً وإدراكاً، بدلاً من كـل هـذا يصبح مزيجاً من التوجهات الفكرية المتناقضة، فلا هو شرقي محـافظ، ولا غربي متحرر، ولا حتى بين بين، فيأخذ بحسنات الجانبين، ويحقـق شيئاً من التوازن على الأقل، بل هو شرقي تارة، وغربي تـارة، أشـبه بنسخة كربونية سيئة عديمة الوضوح ،غامضة على الآخـرين وعلـى صاحبها نفسه.

******

وإذا كان هناك من آثر البقاء في الغرب، فقد كان هنالك بالمقابـل من رفض هذا الخيار رفضاً بيّناً، برغم مغرياته، وسأكتفي بذكر نموذج واحد[1]، وذلك عندما فكّر فيه الدكتور حسين فوزي، العالم المتخصص

(١) نظراً لكثرة السير الذاتية التي تطرقت لهذه النقطة "الإقامة الدائمة في الغرب" آثرت أن أكتفي بذكر نموذج واحد منعاً للإطالة.

obeikandl.com

في مجال البيئة البحرية، والكاتب في مجال أدب الرحلات، الشهير باسم السندباد.

ففي سيرة حياته **(سندباد في رحلة الحياة)** ، وبعد أن أتم تحصيله العلمي وتجاربه البحرية في فرنسا وشمال أوروبا ،خطرت بذهنه فكرة البقاء، وقد شُغف بالمستوى المتقدم في دراسات علم البحار والبيئة السمكية، وتعلق كذلك بفن الموسيقى، ومشاهدة لوحات أعظم رسامي أوروبا. وأقرّ بأن خيار البقاء ساوره أكثر من مرة طوال سنوات دراسته[١]، لكنه حسم الأمر باتخاذ قرار العودة لخدمة بلاده التي أسدت إليه المعروف والجميل، بتعليمه وابتعاثه ورقيه العلمي والفني كذلك.

والحقيقة أن شخصية الدكتور حسين فوزي سواء في سيرته في رحلة الحياة، أو في رحلته للعالم الجديد، شخصية جادة عملية، لا مكان للهزل فيها، بل إنه في المواضع النادرة من سيرته – وعندما يذكر أو يتذكر أمراً هزلياً– يعتذر للقارئ في السطر الذي يليه، والحقيقة أيضاً أن الدكتور حسين فوزي خدم بلاده في كل أطوار حياته العملية، قبل سفره وابتعاثه، وبعد عودته.

وأرى أن الكاتب أحسن الاختيار بعودته لوطنه، وإسهامه في رقي هذا الوطن ،وعلو شأنه، وهذا ما أراه الأفضل والأقوم.

---

(١) انظر: سندباد في رحلة الحياة، حسين فوزي، ١٥٩.

obeikandl.com

أما الأمر الذي أثار استغرابي في سيرته، فهو ولعه وتعلقه بفـــن الموسيقى والرسم على نحو خاص، مما يذكرني بالأديب توفيق الحكـــيم الذي تعلق وشُغف بهذين الفنين أيضاً، بفارق أن حسين فـــوزي أحـــرز الدرجة العلمية، أما توفيق الحكيم فلم يُقدّر له ذلك.

والذي أود قوله هو أن الهواية والتعلق بأي فن من الفنـــون لـــيس ذريعة كافية للالتفات والانشغال عن الدافع الأساسي للابتعاث ،ولســـت هنا ضد توفيق الحكيم أو في صفه، فالرجل عمل بإخلاص فـــي ســـلك القضاء والنيابة العامة، وخدم بلده، وليست هذه الدراسة مكاناً للمقارنـــة والحكم واستخلاص العبر بين تجربة الأديبين، سواء في تجربة الابتعاث أو العودة بعد ذلك. ومع هذا كله، ينبغي القول بأن الإرث الأدبي لتوفيق الحكيم لا يكاد يضاهيه أحد من أنداده المعاصرين له، من حيث الغزارة والتنوع والعمق، وهذه شهادة حق أحتسبها لصالح الحكيم، وهو بها لائق وجدير.

obeikandi.com